المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/.v8i4.416

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 7-9-2024
تاريخ القبول: 12-10-2024

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في الدراسات الإسلامية والإنسانية

الخصومة العلمية ونظام الرعاية في مصر في القرن الخامس عشر: العيني والمقريزي وابن حجر العسقلاني أنموذجًا

آن ف. برودبريج[1]

ترجمة: عبد الله مجموعه دار[2]

abdullah.mojumder@gmail.com

الملخص:

يتناول مقال «الخصومة العلمية ونظام الرعاية في مصر القرن الخامس عشر: العيني والمقريزي وابن حجر العسقلاني أنموذجًا» الذي كتبته آن ف. برودبريج العلاقة بين العلماء والنخبة العسكرية في العصر المملوكي، مستخدمة حياة ابن حجر والعيني والمقريزي كأمثلة. يوضح المقال نظام المنفعة المتبادلة حيث كانت النخبة العسكرية تقدم الدعم المالي للعلماء مقابل الشرعية والمشاركة الثقافية. بالنسبة للعلماء، غالبًا ما كان التقدم المهني يعتمد على المنافسة الاجتماعية والأكاديمية ضمن إطار الرعاية المملوكية. هذا الوضع أدى إلى ظهور المنافسات والصراعات مع سعي العلماء للحصول على رضا الرعاة والمكافآت المرتبطة بذلك. يذكر النص تحديدًا المنافسة بين العيني والمقريزي بعد حادثة وقعت بين 1399-1401م، بالإضافة إلى الصراعات المستمرة بين العيني وابن حجر. يقترح المؤلف أن دراسة حياة هؤلاء العلماء تقدم نظرة عميقة على أنواع المنافسات الشائعة بين العلماء في تلك الفترة. بالإضافة إلى ذلك، تكشف عن التعريفات المختلفة، وأحيانًا المتناقضة، للنجاح في مجتمعهم.

الكلمات المفتاحية:

العصر المملوكي، مصر، المنافسة العلمية، نظام الرعاية، العلماء

(1) هي أستاذة مشاركة ورئيس قسم التاريخ بجامعة ماساتشوستس، أمهرست في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي عضو في جمعية دراسات الشرق الأوسط (MESA) وجمعية دراسات أوراسيا الوسطى (CESS).

(2) **ماجستير في اللغة العربية وآدابها بجامعة داكا.**

للاقتباس: برودبريج، آن ف، الخصومة العلمية ونظام الرعاية في مصر في القرن الخامس عشر: العيني والمقريزي وابن حجر العسقلاني أنموذجًا، ترجمة: عبد الله مجموعه دار، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج8، ع4، 2024، 124- 148.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أُجري عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS
Received: 2024-9-7
Accepted: 2024-10-12

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
الدراسات الإسلامية والإنسانية

Scholarly Rivalry and the Patronage System in Fifteenth-Century Egypt: Al-Ayni, Al-Maqrizi, and Ibn Hajar Al-Asqalani as Models

Anne F. Brodbridge[3]

Translated by: Abdullah Majmou'ah Dar[4]

abdullah.mojumder@gmail.com

Abstract:

Anne F. Brodbridge's article, "Scholarly Rivalry and the Patronage System in Fifteenth-Century Egypt: Al-Ayni, Al-Maqrizi, and Ibn Hajar Al-Asqalani as Models," examines the relationship between scholars and the military elite in the Mamluk period using the lives of Ibn Hajar, Al-Ayni, and Al-Maqrizi as examples. The article illustrates a system of mutual benefit whereby the military elite provided financial support to scholars in exchange for legitimacy and cultural participation. For scholars, career advancement often depended on social and academic competition within the framework of Mamluk patronage. This situation led to rivalries and conflicts as scholars sought the satisfaction of patrons and the associated rewards. The text specifically mentions the rivalry between Al-Ayni and Al-Maqrizi after an incident that happened between 1399-1401 AD, in addition to the ongoing conflicts between Al-Ayni and Ibn Hajar. The author suggests that studying the lives of these scholars provides insight into the types of rivalries common among scholars of the period. In addition, it reveals the different, and sometimes contradictory, definitions of success in their society .

Keywords:

Mamluk Era, Egypt, Scholarly Rivalry, Patronage System, Scholars.

(3)Associate Professor and Chair of the Department of History at the University of Massachusetts, Amherst, USA. She is a member of the Middle East Studies Association (MESA) and the Central Eurasian Studies Society (CESS).
(4) MA in Arabic Language and Literature, University of Dhaka.

Cite this article as: Brodbridge, Anne F., Scholarly Rivalry and the Patronage System in Fifteenth-Century Egypt: Al-Ayni, Al-Maqrizi, and Ibn Hajar Al-Asqalani as Models, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 8, issue 4, 2024, 124- 148.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), allowing anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made. This research shall not be used for commercial purposes.

المقدمة

كانت علاقة العلماء والنخبة العسكرية في القاهرة المملوكية في القرن الخامس عشر علاقة اعتماد متبادل، إذ تقدم النخبة العسكرية الرعاية المالية والمادية للعلماء في مقابل الشرعية والاندماج في البيئة الثقافية الإسلامية السائدة في القاهرة. يشير مايكل تشامبرلين في كتابه «Knowledge and Social Practice in Medieval Damascus, 1190-1350» (العلم والممارسة الاجتماعية في دمشق في العصور الوسطى 1190-1350م) إلى أن البيئة (الطبيعية) للعلماء كانت بيئة تنافس دائم، حيث كان العلماء يتنافسون على القرب من الأعضاء الأقوياء في النخبة العسكرية، وعلى المناصب[5] التي يمكنهم الوصول إليها من خلال هذا القرب. في الواقع، كان الطريق إلى النجاح المادي والمالي بالنسبة للعلماء يكمن في كثير من الأحيان ضمن شبكة حميمة من الروابط الشخصية والمهنية في الوقت نفسه. ومع ذلك فإن المثال المجتمعي الإسلامي الراسخ للنبوغ العلمي في صورة عالم لم تلوثه أيدي الحكومة الفاسدة = ظل راسخًا في دمشق وفي القاهرة (كما وصفه تشامبرلين) طوال العصر المملوكي. وكما يسارع تشامبرلين إلى الإشارة، فإن المصادر تزودنا بالكثير من الإشارات إلى فكرة الجانب الملوث للمنصب، فضلًا عن أولئك الذين رفضوا مثل هذه المناصب وبالتالي نالوا الثناء من علماء آخرين عليها.

سأتناول في هذه الورقة حياة ثلاثة من مؤرخي القرن الخامس عشر: المقريزي، والعيني، وابن حجر العسقلاني. وتقدم لنا قصة هؤلاء الرجال دراسة حالة للديناميكيات التي ذكرها تشامبرلين عن التنافس العلمي للوصول إلى النخبة العسكرية، وكذلك لآليات ممارسات الرعاية المملوكية. وقد يكون من الممكن أيضًا أن نبحث في الطرق التي أثر بها التلاعب بفرص الرعاية (أو عدمها) ليس فقط على حياة المؤرخين الثلاثة المهنية، بل وأيضًا على علاقاتهم بعضهم مع بعضٍ، وفي نهاية المطاف على كتاباتهم للتاريخ، والتي ربما تكون تجلياتها هي الأكثر أهمية بالنسبة للعلماء اليوم.

السنوات المبكرة

وُلِد أحمد بن علي المقريزي في القاهرة في أسرة علمية سنة 766هـ/1364م. درس في شبابه الحديث والفقه والنحو والقراءات، بالإضافة إلى التاريخ والأدب؛ وسرعان ما صار مؤهلًا لممارسة الفقه على

(5) إنني أستخدم كلمة منصِب وليس منصَب، وهي الصيغة التي استخدمها تشامبرلين في كتابه Knowledge and Social Practice (Cambridge, 1994)، للمفهوم نفسه: منصب مأجور أو منصب مدفوع الأجر؛ لمناقشة الاختلافات بين القراءات، انظر: Li Guo: "Mamluk Historiographic Studies: The State of the Art, Mamluk Studies Review 1 (1997): 24-25, esp. note 46."

المذهب الحنفي. ولكن في أوائل العشرينيات من عمره، تخلى المقريزي عن انتمائه إلى الحنفية وصار شافعيًّا مثل والده. وأسباب هذا التغيير غير واضحة، وإن كانت قد تكون مرتبطة بوفاة والده سنة 786هـ/1384م. ويشير أيمن فؤاد سيد إلى أن المقريزي أدرك التفوق الاستراتيجي للشافعية في الدوائر الفكرية والسياسية القاهرية فغير مذهبه تبعاً لذلك[6]. إلا أن المصدر الذي استند إليه سيد في هذه المعلومات غير واضح؛ ولا يفسر هذا = التحيز الذي ظل المقريزي طيلة حياته ضد الحنفية، والذي كان قويًّا بما يكفي لدفع ابن تغري بردي إلى الإشارة إلى وجود هذا التحيز في كتابات المقريزي[7].

كان العالم الحنفي محمود العينتابي، الذي صار فيما بعد أحد منافسي المقريزي وخصومه في العلم، قد ولد في عينتاب (غازي عنتاب الحديثة) في عام 762هـ/1360م، لعائلة علمية أيضًا. ومثل المقريزي، درس العيني التاريخ والأدب والعلوم الدينية الإسلامية؛ بالإضافة إلى ذلك، كان يجيد اللغة التركية ويعرف درجة من الفارسية[8]. وكان للمعرفة التي اكتسبها العيني بالعديد من اللغات تأثير كبير في حياته المهنية اللاحقة.

كان أصغر العلماء الثلاثة أحمد بن حجر العسقلاني، الذي ولد في مصر سنة 773هـ/1372م، الابن الوحيد لأحد التجار الكريمين، نور الدين علي. وقد صار ابن حجر وأخته الصغرى ست الركب يتيمين عندما كان ابن حجر في الرابعة من عمره. ونتيجة لذلك، نشآ وتعلما على يد ولي أمرهما، الزكي الخروبي. بدأ ابن حجر الدراسة في سن مبكرة وكان طالبًا متفوقًا؛ فذهب في طفولته إلى مكة مع ولي أمره، وفي العشرينيات من عمره شرع في رحلة دراسية في مصر، تلتها رحلة أخرى في اليمن والحجاز. كما زار ابن حجر الشام أكثر من مرة، بل إنه في إحدى رحلاته إلى المدن السورية في عام 802-803هـ/1400م اضطر إلى الانسحاب على عجل إلى القاهرة خوفًا من اقتراب جيوش تيمور[9]. ثم زار اليمن والحجاز عدة مرات أخرى.

وفي حين كان ابن حجر يسافر طلبًا للعلم، كان العيني يسافر أيضًا، وقد أخذته رحلته جنوبًا من مسقط رأسه عينتاب. وفي القدس في سنة 788هـ/1386م حصل أول اتصال للعيني مكّنه من الولوج في

(6) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد (لندن، 1995م)، ص/39.

(7) ابن تغري بردي، المنهل الصافي في المستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين (القاهرة، 1984م)، 417/1.

(8) العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت (القاهرة، 1967م). وتشير عدة أدلة ظرفية في النص إلى أن العيني كان يعرف بعض الفارسية: فقد كان على دراية بـ(الشَّاهنمة) للفردوسي (109) وكتاب البيهقي (127)؛ كما أدرج قائمة طويلة من الألقاب الملكية الفارسية في النص (5). انظر أيضًا تحليله لاسم (جركس) باعتباره عبارة فارسية (أربعة أشخاص -cha har kas) في ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 4:207.

(9) محمد كمال الدين عز الدين، التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني (بيروت، 1404هـ/1984م)، 129.

الدوائر العلمية القاهرية. وكان هذا الاتصال بالشيخ الصيرمي الحنفي، الذي كان يزور القدس آنذاك، وكان رئيسًا للمدرسة والخانقاه الظاهرية في القاهرة، التي أنشأها الظاهر برقوق للتو. وكان الصيرمي قد هاجر من آسيا الوسطى إلى شرق الأناضول، حيث استقر في ماردين قبل أن يدعوه برقوق إلى القاهرة. ومن ثم، ربما كان له روابط لغوية وثقافية مشتركة مع العيني، وإن كانت المصادر غير صريحة في ذلك. وباعتباره الزعيم الروحي لمؤسسة تربطها علاقات بأعلى مستويات النخبة الحاكمة، كان الصيرمي بمثابة جهة اتصال جيدة لأعضاء واعدين من العلماء الشبان. ولا بد أن العيني ترك انطباعًا طيبًا لدى العالم الأكبر سنًّا، حيث دعا الصيرمي الشاب البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا لمرافقته إلى القاهرة. وهناك صار العيني أحد صوفية الظاهرية؛ كما ألقى دروسًا وصار أكثر شهرة في الأوساط القاهرية[10].

وكان ثالث هؤلاء المؤرخين، المقريزي، قد بدأ مسيرته المهنية في سنة 788هـ/1386م. فبدأ كاتبًا في الديوان، كما فعل والده، ثم عُين نائبًا للقاضي. ثم صار بعد ذلك إمامًا في جامع الحاكم، وخطيبًا في جامع عمرو بن العاص، وفي مدرسة السلطان حسن. قد نفترض أن المقريزي كان قبل هذه الفترة وخلالها يقيم بعض تلك الاتصالات الشخصية الضرورية لتحقيق النجاح المالي والمادي ضمن حدود نظام الرعاية المملوكي. ومع ذلك، فمن الصعب تحديد القنوات الدقيقة التي ربما اكتسب المقريزي من خلالها القدرة على الوصول إلى المستويات العليا من الرعاة، أو إلى السلطان نفسه، على الرغم من أننا قد نطرح بعض الاحتمالات.

ومن بين الاحتمالات المطروحة ابن خلدون، الذي وصل إلى القاهرة في عام 784هـ/1382م، وعينه برقوق قاضيًا للمالكية في عام 786هـ/1384م. وسرعان ما تسببت المنافسة في خسارة ابن خلدون لمنصبه؛ فقد نجح أعداؤه في عزله في عام 787هـ/1385م، ولم يعد إلى منصبه إلا بعد سنوات في عام 801هـ/1399م. ومع ذلك، فقد تمكن من البقاء مدرسًا في العديد من المؤسسات في القاهرة، وعُيّن رئيسًا لخانقاه بيبرس، الذي كان يعتبر بلا شك أهم مؤسسة صوفية في مصر[11]. وكان ابن خلدون شخصية مؤثرة في الساحة العلمية والفكرية؛ فلم يكن يعرفه السلطان فحسب، بل كان له أيضًا رعاة آخرون من بين الأمراء، بما في ذلك الأمير ألطنبغا الجُوباني أو الجَوباني، الذي قدمه لأول مرة إلى برقوق[12]. من الصعب تحديد الدرجة الدقيقة للتقارب بين المقريزي وابن خلدون، ولكننا نعلم أن

(10) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (بيروت، 1992م)، 287/12.

(11) هذا مما ادعاه M.Talbi، وإن لم يحدد أسبابه. فهل كان ذلك بسبب ارتباط الخانقاه بالظاهر بيبرس الشهير فحسب؟ أم بسبب عمر الخانقاه النسبي، الذي أُسِّس في بداية رعاية المماليك للمؤسسات الصوفية؟ انظر: M. Talbi, "Ibn Khaldun" The Encyclopaedia of Islam, 2nd Ed., 3:827.

(12) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 208/7.

المقريزي درس التاريخ لدى العالم المالكي وتعلم منه استخدام أدوات مختلفة لقياس الوقت. وقد كافأ فيما بعد أستاذه بكتابة سيرة طويلة عنه[13].

وربما وصل المقريزي أيضًا إلى المستويات العليا في البلاط الملكي من خلال اتصاله بيشبك الشعباني، الدوادار والمعلم لابن برقوق فرج. ويبدو أن المقريزي كان يعرف يشبك جيدًا، على الرغم من أنه من غير الواضح كيف التقيا[14]. على أي حال، تمكن المقريزي من الوصول بطريقة ما إلى قمة التسلسل الهرمي للرعاية. ويذكر السخاوي أن المقريزي كان على علاقة جيدة بالسلطان برقوق، في حين يذهب ابن تغري بردي إلى حد وصف المقريزي بأنه من ندماء برقوق المخلصين[15]. وحتى الآن، فإن قصة المقريزي هي قصة تقدم ناجح في إطار ممارسات الرعاية وتحقيق ليس فقط قدرًا محترمًا من النجاح المهني ولكن أيضًا الوصول المباشر إلى السلطان نفسه.

وفي ذلك الوقت، كان ابن حجر لا يزال منخرطًا في أسفاره. أما العيني، فرغم تأييد الصيرمي له في البداية، فقد واجه الشاب العينتابي المتاعب بعد وفاة الشيخ في عام 790هـ/1388م عندما حاول جهاركس الخليلي، «أمير أخور» السلطان برقوق، إخراج العالم من القاهرة[16]. ويبدو أن الشخصيتين قد اصطدمتا، فقد وصف العيني جهاركس بأنه متكبر ومتغطرس ومستبد، ورجل يسره رأيه[17]. وتمكن العيني من إجراء اتصالات كافية مع العلماء لإنقاذ نفسه من الطرد الجسدي من المدينة من خلال تدخل أحد أساتذته المعروف سراج الدين البلقيني، لكنه مع ذلك قرر الرحيل لمدة قصيرة [18].

وبعد فترة وجيزة قضاها في التدريس في دمشق، حيث عُين محتسبًا برعاية الأمير بطا[19]. عاد العيني إلى القاهرة، بعد أن صار أكبر سنًّا وأكثر حكمة. ولم يضيع العيني هناك أي وقت في إقامة علاقات مع أربعة أمراء: قلمطاي العثماني، وتغري بردي القردمي أو القرمي، وجكم من عوض، وتمربغا المشطوب؛ وذهب العيني للحج مع هذا الأمير الأخير. ومن بين هؤلاء الرجال الأربعة يبدو أن واحدًا فقط -جكم من عوض- قد بلغ مكانة مهمة[20]. كان جكم أحد خاصكية برقوق، وتمت ترقيته في

(13) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة، بدون تاريخ)، 24/2. وكذلك انظر: أحمد الجليلي، «ترجمة ابن خلدون للمقريزي» مجلة المجمع العلمي العراقي 13 (1965م): 215-242.

(14) ويروي السخاوي أن المقريزي عهد إلى يشبك بمبلغ غير محدد من المال في تاريخ غير محدد، وإن لم يذكر غيره هذا في مصادر أخرى. انظر: الضوء، 22/2.

(15) ابن تغري بردي، النجوم، 270/14.

(16) السخاوي، الضوء، 132/10.

(17) ابن تغري بردي يقتبس من العيني في المنهل الصافي، 207/4.

(18) العيني، السيف المهند، مقدمة المحقق، صفحة و.

(19) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق عبد العزيز الطنطاوي القرموط، (القاهرة، 1985م)، 18/2.

(20) قلمطاي العثماني، تغري بردي القردمي أو القرمي وتمربغا المشطوب كانوا جميعًا ضمن الأمراء العشرة لبرقوق. انظر: ابن

النهاية إلى منصب دوادار. وبعد وفاة برقوق في 801هـ/1399م، ثار على ابن برقوق وخليفته الناصر فرج (801-158هـ/1399-1412م) ونصب نفسه حاكمًا مستقلًّا في شمال سوريا وجنوب الأناضول في 809هـ/1406-1407م؛ ولكن بعد فترة وجيزة، ذهبت كل وعوده أدراج الرياح عندما قُتل في معركة على يد التركماني الآق قويونلو. وعلى الرغم من هزيمته النهائية ووفاته، فقد كان من الواضح أثناء حكم برقوق أن جكم كان رجلًا قويًّا، وبالتالي كان راعيًا مرغوبًا لعالم موهوب وطموح مثل العيني[21].

واقعة المحتسب

دخل العيني والمقريزي في منافسة مباشرة خلال العامين اللذين شهدا واقعة المحتسب الشهيرة. ففي رجب سنة 801هـ/مارس سنة 1399م عيَّن برقوقُ المقريزيَّ محتسبًا على القاهرة، وهو منصب مهم ومرموق، وكانت من مهامه ضبط الأوزان، والنقود، والأثمان، والآداب العامة، ونظافة الأماكن العامة، بالإضافة إلى الإشراف على المدارس والتعليم والمعلمين والطلاب، والاهتمام بالحمامات العامة، والسلامة العامة، وحركة المرور. وبالإضافة إلى المكانة المرموقة التي يتمتع بها المحتسب، فإنه كان يمنحه اتصالًا مباشرًا بالسلطان.[22] ورغم ذلك، وكما هو الحال مع العديد من هؤلاء المناصب، لم يكن هذا المنصب مستقرًّا بشكل خاص؛ فقد كان من الممكن تعيين المحتسب وفصله وإعادة تعيينه وإقالته عدة مرات خلال فترة قصيرة، وكان يحدث ذلك في كثير من الأحيان.

ولقد كان هذا هو ما حدث للمقريزي. فقد كانت معرفته ببرقوق تنبئه بمستقبل واعد؛ ولا بد أنه عانى من مشكلات على المستويين الشخصي والمهني بسبب وفاة راعيه في شوال 801هـ/يونيو 1399م. داخل النظام المملوكي، كان موت السلطان يُحدث تحولات في علاقات القوة داخل النخبة العسكرية، والتي بالتالي ربما غيّرت علاقات الرعاية بين تلك النخبة والعلماء. وبالتالي، فإن وفاة برقوق تعني أن منصب المحتسب أصبح مفتوحًا للطموحات المباشرة لعلماء آخرين ورعاتهم.

وفي هذه اللحظة بدأت جهود العيني في استمالة النخبة الحاكمة تؤتي ثمارها. ففي ذي الحجة 801هـ/أغسطس 1399م حل العيني محل المقريزي في منصب المحتسب من خلال تدخل الأمير جكم.[23]

تغري بردي، المنهل الصافي، 54/4 (تغري بردي القرامي)؛ 100/4 (تمربغا المشطوب). ولقلمطاي العثماني، انظر تقي الدين أحمد المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عاشور، 740/2/3. ولجكم من عوض، انظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 4/ 313-322.

(21) السخاوي، الضوء، 10/ 132.

(22) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (بيروت، 1407هـ/1987م)، 38/4.

(23) وكان تعيينه عن طريق الجكم وحده، كما ذكره المقريزي في كتاب السلوك (القاهرة، 1973م)، 1038/3/3. وذكر ابن تغري

ويرى المؤرخون المعاصرون والمحدثون أن هذه اللحظة كانت نقطة البداية للعداء بين العالمين. يقول ابن تغري بردي: «فمن يومئذ وقعت العداوة بينهما إلى أن ماتا»[24]. ولم يدم عمل العيني طويلًا، فبعد شهر واحد من تعيينه عُزل (محرم 802هـ/سبتمبر 1399م) وأعيد تعيينه بعد شهرين في ربيع الأول/ نوفمبر. وتمكن من البقاء محتسباً حتى جمادى الأولى 802هـ/فبراير 1400م، حيث نجح المقريزي في استبداله لمدة عام تقريبًا. ثم عاد العيني مرة أخرى بتدخل الأمير جكم إلى منصبه في ربيع الأول 803هـ/ أكتوبر 1400م، وهو ما مثل نهاية مسيرة المقريزي القصيرة كمحتسب. ولم يدم عمل العيني نفسه محتسبًا طويلًا، حيث عُزل مرة أخرى بعد أربعة أشهر في رجب 803هـ/فبراير 1401م.

وفي هذه الفترة أيضًا كان الصراع على السلطة يقترب من ذروته بين جكم، راعي العيني، ويشبك الشعباني، الراعي الثاني للمقريزي بعد السلطان الراحل برقوق. وباختصار، شمل هذا الصراع سجن يشبك في عام 803هـ/1401م، في حين تولى جكم منصبه كدوادار، ثم إطلاق سراح يشبك وسجن جكم بدوره في عام 805هـ/1402م، وبلغ ذروته في ميثاق ضم كلا الأميرين، الأمير والسلطان الشيخ في المستقبل، وقره يوسف من تركمان القره قويونلو، الذين حاولوا جميعًا الإطاحة بالناصر فرج في عام 807هـ/1405م ولكنهم فشلوا في النهاية[25]. وإذا افترضنا أن هذا التنافس امتد إلى أتباع الأميرين، فإن هذا من شأنه أن يساعد في تفسير السرعة التي حل بها العالمان بعضهما محل بعضٍ في منصب المحتسب. ومن المؤكد أن العداء الذي نشأ عن حادثة المحتسب كان له تداعيات واضحة في الأعمال اللاحقة لكل من العيني والمقريزي، وخاصة في تعامل بعضهما مع بعضٍ.

وفي هذه الأثناء عاد ابن حجر، الذي كان مسافرًا أثناء صراع المحتسبين العيني والمقريزي، إلى القاهرة في سنة 806هـ/1403م-1404م. ويبدو أنه قضى السنوات العشر التالية في ترسيخ مكانته في المجتمع الفكري القاهري تحت النظام الجديد لابن برقوق وخليفته، الناصر فرج. وقد فعل ذلك من خلال عدد من المناصب المختلفة، بما في ذلك المفتي أو دار العدل في عام 811هـ/1408-9م، وهو المنصب الذي شغله حتى وفاته[26].

وبعد حادثة المحتسب، ظلت مسيرة العيني المهنية مستقرة نسبيًّا، بل وتضمنت فترة وجيزة في منصب مرغوب فيه ومرموق وهو ناظر الأحباس (مشرف على الأوقاف الدينية) في عام 804هـ/1401م.

بردي في النجوم (287/15) أنه كان عن طريق الأمراء الثلاثة: جكم من عوض، وقلمطاي العثماني، وتغري بردي القردمي.

(24) ابن تغري بردي، النجوم، 15/ 287.

(25) انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، 4/313-19.

(26) محمد كمال الدين عز الدين، المنهج، ص/152.

وقضى العيني السنوات العديدة التالية في التدريس في مدارس مختلفة في القاهرة، ثم نجح في تعيينه مرة أخرى، لفترة وجيزة، محتسبًا وناظرًا للأحباس قرب نهاية عهد فرج[27]. وقد عُين وأُقيل من المنصب الأخير عدة مرات أخرى خلال مسيرته المهنية الطويلة، وهذا ما ينعكس في ثروة التفاصيل الاقتصادية التي أدرجها في سجل تاريخه.

أما المقريزي، فعلى الرغم من فشله في البقاء في منصب المحتسب، فإنه يستحق كل الفضل في نجاح تفاعلاته مع رعاته خلال هذه الفترة. فقد تمكن المقريزي طوال حكم فرج من الحفاظ على قدر من العلاقة الحميمة مع السلطان الجديد، إن لم يكن بالقدر نفسه الذي كان يتمتع به مع برقوق وعلى الرغم من مسيرة يشبك الشعباني المتمردة. وفي سنة 810هـ/1408م رافق المقريزي فرج إلى دمشق، وهناك عينه السلطان مدرسًا للحديث في مدرستي الأشرفية والإقبالية، كما عينه مشرفًا على الوقف في مستشفى النوري. وفي الوقت نفسه عرض فرج على المقريزي منصب قاضي القضاة الشافعيين في دمشق، ولكنه رفضه[28]. والأسباب وراء هذا الرفض غير واضحة. ولعل المقريزي كان قد أصيب بخيبة أمل إزاء المنافسة، والنفوذ «الفاسد» للحكومة، ونظام الرعاية بشكل عام، ولكن لا بد لنا أن نتساءل عن السبب، حيث إنه كان ناجحًا في مسيرته وفقًا للمعايير السائدة في ذلك العصر. أو ربما كان مترددًا في تولي منصب كان طيلة التاريخ الإسلامي مرتبطًا بالفساد والنفاق. أو من الممكن أنه كان منجذبًا إلى المثال الثقافي للمؤرخ الذي يتخلى عن التدخل السياسي والهواجس الدنيوية من أجل إنتاج تاريخ غير متحيز، وبالتالي كان يبحث عن نجاح علمي غير متأثر بالارتباطات السياسية. يقول السخاوي في سيرته: «ثمَّ أعرض عَن ذَلِك وَأقَام بِبَلَدِهِ عاكفًا على الِاشْتِغَال بالتاريخ»[29].

وفي عام 810هـ/1408م عاد المقريزي إلى القاهرة ويبدو أنه كرس نفسه ليكون عالمًا مثاليًّا[30]. ويشير محمد مصطفى زيادة بلطف إلى أن المطالب التي تستغرق وقتًا طويلًا في كلٍّ من المهنة العلمية والمهنة الإدارية كانت عاملًا مهمًّا في قرار المقريزي في النهاية بالابتعاد عن متطلبات الساحة التنافسية[31]. ورغم أن الرغبة في الحصول على مزيد من وقت الفراغ لكتابة التاريخ ربما كانت عاملًا في انسحاب المقريزي من السباق العلمي في القرن الخامس عشر، فإن أدلة إضافية تشير إلى خلاف ذلك، وخاصة بعد وفاة فرج في عام

(27) السخاوي، الضوء، 132/10. وكذلك العيني، السيف المهند، مقدمة المحقق، صفحة و.

(28) يذكر السخاوي في الضوء أن الناصر فرج عرض على المقريزي القضاء عدة مرات (22/2)؛ وابن تغري بردي في المنهل الصافي يدعي أنه عرض مرة واحدة فقط (417/1).

(29) السخاوي، الضوء، 22/2.

(30) المرجع نفسه.

(31) محمد مصطفى زيادة، تاريخ حياة المقريزي في «دراسات عن المقريزي» (القاهرة، 1971م)، ص/16.

815هـ/1412م، وتولي الخليفة المستعين (815هـ/1412م)، ثم المؤيد شيخ (815-824هـ/1412-1421م).

يقدم السخاوي معلومتين مثيرتين للاهتمام: الأولى هي أن المقريزي نظم سيرة للشيخ كتبها ابن ناهض (ت 841هـ/1438م). لكن السخاوي لا يذكر شيئًا عن استقبالها في البلاط، إن كانت قد استُقبلت على الإطلاق[32]. لكن قيام المقريزي بهذه الخطوة يثير الشك حول صورة انسحابه الطوعي من البلاط. كما ينسب السخاوي إلى المقريزي الفضل في حصوله على منصب تدريسي في الحديث في المؤيدية. ويشير هذا، على الأرجح، إلى مجمع مسجد المؤيدي، الذي كان يضم أيضًا مدرسة وضريحًا وخانقاه. وقد ذكر المقريزي المجمع مرارًا في كتاب السلوك، وإن لم يذكره في الخطط إطلاقًا. ومع ذلك فإن المقريزي لم يذكر في أي موضع أنه تولى التدريس فيه، وإن كان يحرص على تحديد العلماء الذين تولوا التدريس فيه، ومنهم ابن حجر. كما لم يذكر ابن تغري بردي أن المقريزي درّس في المؤيدية في ترجمة شيخه.

ولذلك يتبقى لنا سؤال: ماذا فعل المقريزي بعد رفضه منصب القاضي في دمشق؟ وهل اعتزل الدنيا طوعًا؟ لعل ذلك صحيحًا، وإن كانت شهادة ابن تغري بردي التي أوردها بعد سنوات في سنة 841هـ/1437م تشير إلى غير ذلك:

«الشيخ تقي الدين المقريزي ﷺ كان له انخراقات معروفة عنه وهو معذور في ذلك، فإنه أحد من أدركنا من أرباب الكمالات في فنه ومؤرخ زمانه، لا يدانيه في ذلك أحد، مع معرفتي بمن عاصره من مؤرخي العلماء؛ ومع هذا كله كان مبعودًا في الدولة، لا يدنيه السلطان مع حسن محاضرته وحلو منادمته. على أن الملك الظاهر برقوق كان قرّبه ونادمه وولاه حسبة القاهرة في أواخر دولته، ومات الملك الظاهر فلم يمش حاله على من جاء بعده من الملوك وأبعدوه من غير إحسان؛ فأخذ هو أيضًا في ضبط مساوئهم وقبائحهم، فمن أساء لا يستوحش»[33].

وهذا يشير إلى أن عزلة المقريزي عن الدوائر الملكية ربما لم تكن راجعة إلى رغبته النشطة في العزلة من جانبه، بل إلى درجة من الفشل في محاولته التنافس للحصول على رعاية الرجال الأقوياء. وقد تجلى هذا لاحقًا في تعليقات مريرة، وتحيزات ملحوظة في عمله، وسلوكيات أخرى من نوع «العنب الحامض» أو الحسد. فمن بين ثلاثي المؤرخين القاهريين الذين كتبوا في النصف الأول من القرن الخامس عشر أي: المقريزي، وابن حجر، والعيني، كان المقريزي هو الأكثر انتقادًا للشيخ، ثم لاحقًا للأشرف برسباي

(32) السخاوي، الضوء، 23/2.

(33) Ibn Taghribirdi, History of Egypt 1382-1467, trans. William Popper, University of California Publications in Semetic Philology (Berkeley, 1958), 18/143.

وقد أشار غاستون ويت إلى فائدة عادة ابن تغري بردي في التعليق على آراء المقريزي أستاذه ومرشده في المجال التاريخي. انظر:
Gaston Wiet, "L'historien Abul-Mahasin", Bulletin de l'Institut d'Egypte (10) 1930: 102-3

(حكم من 825هـ إلى 841هـ/1422م إلى 1438م)، حيث لم يكن أي منهما مؤيدًا له. وقد وصف المقريزي الشيخ بأنه:

«... كان بخيلًا مسّيكًا يشحّ حتى بالأكل، لحوحًا غضوبًا نكدًا حسودًا معيانًا، يتظاهر بأنواع المنكرات، فحّاشًا سبّابًا... وهو أكبر أسباب خراب مصر والشّام...»[34]

وفي وقت لاحق، كتب ابن تغري بردي أنه يختلف مع تقييم المقريزي، ورد بقوله: «وكان يمكنني الرّدّ عليه في جميع ما قاله بحق غير أنني لست مندوبًا إلى ذلك، فلهذا أضربت عن تسويد الورق وتضييع الزمان»[35].

ولم يكن المقريزي مجاملًا لبرسباي إذ قال:

«وَكَانَت أَيَّامه هدوء وَسُكُون إِلَّا أَنه كَانَ لَهُ فِي الشُّح وَالْبخل والطمع مَعَ الْجُبْن والجور وَسُوء الظَّن ومقت الرّعية وَكَثْرَة التلون وَسُرْعَة التقلب فِي الْأُمُور وَقلة الثَّبَات أَخْبَار لم نسْمع بِمِثْلِهَا وَشَمل بِلَاد مصر وَالشَّام فِي أَيَّامه الخراب وَقلة الْأَمْوَال بهَا. وافتقر النَّاس وَسَاءَتْ سير الْحُكَّام والولاة مَعَ بُلُوغه آماله ونيله أغراضه وقهر أعدائه وقتلهم بيد غَيره لِتَعْلَمُوا أَن الله على كل شيء قدير»[36].

ويوبخ ابن التغريبردي أستاذه مرة أخرى على نقده، قائلًا:

«وأما ما ذكره عنه الشيخ تقي الدين المقريزى في تاريخه من المساوئ، فلا أقول إنه مغرض في ذلك بل أقول بقول القائل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلّها كفى المرء فخرًا أن تعدّ معايبه.

وكان الأليق الإضراب عن تلك المقالة الشنعة في حقه من وجوه عديدة»[37].

وبينما كان المقريزي يزداد إحباطًا ويجمع بين الحقد والمرارة ضد الشيخ وبعده برسباي، انحدرت مسيرة العيني أيضًا هبوطًا حادًا عندما (أُمْتُحِنَ) في بداية حكم الشيخ. ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن يعود إلى حظوته[38]. ومن المؤسف أن سبب وطبيعة هذا (الامتحان) لا يزالان غير واضحين، كما لا تزال الطريقة التي استعاد بها العيني تأييد السلطان غير واضحة. ومع ذلك، تمكن العيني من التغلب على بدايته المحرجة مع الشيخ، وفي غضون فترة قصيرة من الزمن صار أحد رفاق السلطان المخلصين.

(34) Ibn TaghriBirdi, History of Egypt, trans. Popper, 17/87.

(35)المرجع نفسه.

(36) المقريزي، كتاب السلوك، 1066/2/4.

(37) Ibn TaghriBirdi, History of Egypt, trans. Popper, 18/157.

(38) W. Marçais, "al-Ayni," EI2, 2/790.

وانظر كذلك: السخاوي، الضوء، 132/10.

وفي عهد المؤيد عُيِّن العيني مرة أخرى ناظرًا للأحباس، وهو المنصب الذي شغله -باستثناء فترات وجيزة- حتى عام 853هـ/1449م[39]. وكان إتقان العيني للغة التركية ميزة مميزة، استغلها لصالحه، فبالإضافة إلى المناصب العلمية والمالية، عين المؤيد العينتابي سفيرًا له لدى القرمان في قونية عام 823هـ/1420م[40].

وبحلول هذا الوقت، يبدو أن العيني قد اكتسب قدرًا من البراعة في المناورة داخل نظام الرعاية، ووعيًا بأهمية البقاء في دائرة الحظوة الملكية. ومن الطرق المعروفة قديمًا لترسيخ المكانة الثناء المباشر، وقد استخدمه العيني في ترجمة المؤيد السيف المهند في سيرة الملك المؤيد[41]. في هذا العمل النثري المكون من مجلد واحد، أعطى العيني للشيخ شرعية بوضعه في سياق التاريخ العالمي، والتاريخ الإسلامي، والسلالة العربية القديمة على التوالي.

يوجد أيضًا دليل مادي على نجاح العيني في المنافسة على الرعاية، وهو المدرسة التي أمر ببنائها بجوار منزله، الذي كان بالقرب من الأزهر. وكانت أغلب المباني الدينية الموقوفة التي شُيّدت خلال العصر المملوكي برعاية السلطان وعائلته، أو أفراد آخرين رفيعي المستوى وأثرياء من النخبة العسكرية. كما موَّل بعض المسؤولين المدنيين في الإدارة بناءَ وصيانة مشاريع أصغر. ولكن كما أشار تشامبرلين، فإن (العلماء) على النقيض من ذلك كانوا يميلون إلى الاستفادة من مشاريع البناء، وعادة ما كان ذلك من خلال الحصول على منصب في هيئة تدريس أو منصب مالي أو إداري داخل مؤسسة دينية. وكان عدد أقل نسبيًا من أعضاء (العلماء) هم الذين وقفوا على المباني. التاريخ الدقيق لبناء مدرسة العيني غير معروف، ولكن لا بد أنه كان في عهد المؤيد، حيث رمّمها السلطان بنفسه وأضاف قبة إليها قبل وفاته في عام 824هـ/1421م، في إشارة واضحة إلى تأييده للعيني[42].

وفي الوقت نفسه كان ابن حجر يلفت انتباه الشيخ بشكل متزايد. وقد عُيّن ابن حجر خطيبًا في الأزهر عام 819 هـ/1416م، وفي عام 820 هـ/1417م كان يقرأ إعلانات حملة السلطان في الأناضول على عامة الناس في ذلك المسجد. وفي عام 822هـ/1419م كلف الشيخ ابن حجر بصفته مفتي دار العدل بالحكم في قضية القاضي الشافعي الرئيس الهروي المتهم بالاختلاس. بعد نجاح ابن حجر في حل القضية، عُيّن مدرسًا للفقه الشافعي في مسجد المؤيدي، والذي كان -كما هو متوقع- أحد أهم

(39) Ibn TaghriBirdi, History of Egypt, trans. Popper, 19/118.

وانظر كذلك: السخاوي، الضوء، 132/10.

(40) العيني، عقد الجمان، 377/1.

(41) انظر الحاشية رقم 4.

(42) Layla Ali Ibrahim and Bernard O'Kane, "The Madrasa of Badr ad-Din Al-Ayni and Its Tiled Mihrab", Annales Islamogiques 24 (1998): 267.

مسجدين في عهد الشيخ من حيث الرعاية (المسجد الآخر كان الأزهر).

وبعد وفاة الشيخ في عام 824هـ/1421م ظل كل من العيني وابن حجر في موقعهما؛ ويبدو أن مسيرة المقريزي لم تتجه إلى أي مكان، كما يتبين من فشله الواضح في الساحة التنافسية. ولم تتحسن حياة العيني المهنية على وجه الخصوص إلا خلال فترة الحكم القصيرة لخليفة المؤيد، الظاهر ططر (824هـ/1421م)، وبلغت ذروتها في عهد برسباي. وفي عهد برسباي تطورت العلاقة الشخصية بين العيني وحاكم المماليك إلى أقصى حد، وهذا العهد هو أكثر ما يستشهد به المؤرخون المعاصرون عند وصف قربه من السلاطين بشكل عام. واستمرارًا فيما يبدو أنه ممارسة مثمرة في الثناء، كتب العيني سيرة كل من ططر وبرسباي. مرة أخرى، أثبتت إتقانه للغة التركية فائدته، حيث ترجم رسالة فقهية للقدوري إلى اللغة التركية لططر، وكان يقرأ التاريخ بصوت عالٍ لبرسباي باللغة العربية ثم يشرحه باللغة التركية[43]. وكتب السخاوي لاحقًا:

«وكان شيخنا البدر العيني يقرأ عند الأشرف برسباي وغيره التاريخ ونحوه، [وقد كان الأشرف معجبًا بقراءته] بحيث يقول الأشرف ما معناه: إنه ما عرف الإسلام إلا منه. وجمع هو وغيره –كـ: ابن ناهض وغيره- للملوك سيرًا؛ لعلمهم برغبتهم في ذلك»[44].

لم تكن العلاقة بين العيني وبرسباي مجرد علاقة الحاكم السيادي والمؤرخ المسلي، بل كان العيني هو الذي يلجأ إليه برسباي لطلب المشورة في الأمور الدينية، إلى الحد الذي قيل إنه قال في أكثر من مناسبة: «لولا العينتابي لكان في إسلامنا شيء»[45]. ولم يكن هذا هو أقصى نجاح العيني في إطار ممارسات الرعاية السائدة، حيث عُيّن قاضيًا للمذهب الحنفي في عام 829هـ/1426م. وفي عهد برسباي أيضًا صار العيني أول من تولى مناصب المحتسب وناظر الأحباس وقاضيًا للمذهب الحنفي في الوقت نفسه في عام 835هـ/1431م[46].

وبالإضافة إلى منادمة السلطان بالحكايات وتعليمه حقوقه والتزاماته الدينية، كان العيني ينصح برسباي في مسائل فقهية حساسة[47]. كما اعتمد برسباي على العيني مرة واحدة على الأقل ليحل محله

(43) المقريزي، كتاب السلوك، 698/2/4، السخاوي، الضوء، 132/10.

(44) Al-Sakhawi, "Al-I'lan bi-Al-tawdih Li-Man Damma Ahl Al-Tarikh," ed. And trans. Franz Rosenthal, in A History of Muslim Historiography (Leiden, 1952), 259.

(45) ابن تغري بردي، النجوم، 287/15؛ السخاوي، الضوء، 132/10.

(46) العيني، عقد الجمان، 21/2. هذه الحادثة وقعت قبل 1442/846-4 كما ذكره Marcais في مقاله (1/790-91) EI^2.

(47) انظر الحاشية رقم 74.

في تحية كبار الشخصيات الأجنبية، وربما يرجع ذلك جزئيًا إلى كفاءته في عدة لغات[48]. ويقدم ابن تغري بردي صورة مثيرة للاهتمام للدور التعليمي الذي لعبه العيني عندما يكتب:

«... فإنه [العيني] كان كثيرًا ما يقرأ عنده [برسباي] تواريخ الملوك السالفة وأفعالهم الجميلة، ويذكر له ما وقع لهم من الحروب والخطوب والأسفار والمحن، ثم يفسر له ذلك باللغة التركية، وينمقها بلفظه الفصيح، ثم يأخذ في تحبيبه لفعل الخير والنظر في مصالح المسلمين، ويرجعه عن كثير من المظالم.

... وكان الأشرف اغتنى بقراءة العينى له في التاريخ عن مشورة الأمراء في المهمات، لما تدرب بسماعه للوقائع السالفة.

... فإن الملك الأشرف كان أميًّا صغير السن لما تسلطن، بالنسبة لملوك الترك الذين مستهم الرق، فإنه تسلطن وسنّه يوم ذاك نيف على أربعين سنة، وهو غرّ لم يمارس التجارب، ففقّهه العينى بقراءة التاريخ، وعرّفه بأمور كان يعجز عن تدبيرها قبل ذلك.

... فلذلك كان العينى هو أعظم ندمائه وأقرب الناس إليه، على أنه كان لا يداخله في أمور المملكة البتة، بل كان مجلسه لا ينقضى معه إلا في قراءة التاريخ، وأيام الناس وما أشبه ذلك»[49].

ولا يبدو أن علاقة ابن حجر ببرسباي كانت على نفس المستوى الشخصي. فقد كان ابن حجر يمتلك قدرًا هائلًا مما أشار إليه تشامبرلين بـ«رأس المال الثقافي»؛ لقد كان -وفقًا لجميع الروايات- عالمًا متميزًا في علوم كثيرة متنوعة، وكان شديد الذكاء، وغزير الإنتاج للغاية[50]. وقد اكتسب مناصب مهمة في عهد خمسة سلاطين متعاقبين وقضى سنوات في أعلى منصب وأكثرها شهرة في مملكة المماليك، وهو منصب قاضي قضاة الشافعية في مصر. ومع ذلك، ورغم أن برسباي هو الذي عين ابن حجر في هذا المنصب في عام 827هـ/1424م، فلا يبدو أن العالم كان من أقرب أصدقاء السلطان الشخصيين. ومن المؤكد أن ابن حجر كان مقيدًا بحاجز لغوي، لأنه على عكس العيني لم يكن يعرف التركية، وكان في بعض الأحيان يذهب إلى حد توبيخ أولئك الذين يتحدثون معه باللغة التركية[51]. وقد أشار تشامبرلين أيضًا إلى أن العديد من العلماء عاشوا في منطقة وسطى من الناحية الأخلاقية[52]. يصور محمد كمال عز الدين ابن حجر في صراع نفسي حول وظيفته كقاضٍ، منزعجًا من متطلبات أن يكون عادلًا وسياسيًا في الوقت نفسه[53]. ومن

(48) العيني، عقد الجمان، 21/2.

(49) Ibn TaghriBirdi, History of Egypt, trans. Popper, 18/158.

(50) Chamberlain, Knowledge, 6.

(51) عز الدين، المنهج، ص/161.

(52) Chamberlain, Knowledge, 104.

(53) عز الدين، المنهج، ص/158.

المؤكد أن هذا التوتر نشأ في صراعات دورية مع أكثر من سلطان[54].

الخصومات

كانت العلاقة بين ابن حجر والعيني، وكلاهما من الشخصيات البارزة لأكثر من عشرين عامًا، وكلاهما متنافسان ناجحان على الرعاية، علاقة متغيرة. فقد حافظ العالمان على قدر معين من المنافسة الشعرية واستغلا مناسبة انهيار مئذنة مسجد المؤيد في عام 821هـ/1418-1419م لسخرية بعضهما من بعضٍ بالشعر. ولم يذكر أي من العالمين أو المقريزي هذا التنافس الشعري، وإن كان قد ظهر في كتاب (النجوم) لابن تغري بردي وفي أعمال بعيدة عن القاهرة مثل كتاب «صدق الأخبار» لابن سباط (ت 926هـ/1520م)، الذي عاش على الساحل الشمالي لسوريا[55]. ولم يكن هذا سوى مقدمة لتنافس لاحق أكثر جدية بين ابن حجر والعيني حول شرحيهما المختلفين لصحيح البخاري. ورغم أن كلا العالمين كان له مؤيدوه، إلا أنه يمكن اعتبار ابن حجر المنتصر النهائي بكتابه «فتح الباري في شرح البخاري»، وكذلك كتابه «انتقاض الاعتراض»، وهو نقد لنقد العيني لفتح الباري. وقد تدهورت العلاقات بين الرجلين بشكل ملحوظ في بعض الأحيان، ولا سيما في الفترة التي سبقت مباشرة 26 صفر 833هـ/24 نوفمبر 1429م، وهو التاريخ الذي عُزل فيه الرجلان في الوقت نفسه من منصبيهما كقاضيين. ولم يقدم ابن حجر أي تفسير، لكن العيني كان حريصًا على الإشارة إلى أن الطرد لم يكن خطأه فحسب، بل إنه لم يؤثر في الواقع على ارتباطه ببرسباي؛ وبذلك يشير عن غير قصد إلى العلاقة المتوترة التي كانت تربطه بابن حجر:

«وفي يوم الخميس السادس والعشرين من صفر خلع على القاضي علم الدين صالح بن البلقيني الشافعي واستقر قاضي القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضًا عن القاضي شهاب الدين بن علي بن حجر بحكم عزله، كذا خلع على عبد الرحمن التفهني واستقر قاضي القضاة الحنفية بالديار المصرية عوضًا عن مسطره بحكم عزله، وكان السبب في ذلك سعي بعض الأعداء عند الملك الأشرف بأن هذين القاضيين لم يزالا يتضاربان ولا يتفقان فضاعت مصالح المسلمين بينهما. لم يجدوا طريقًا في عزل مسطره إلا هذا الافتراء[56] فوقع العزل بسبب ذلك وقد خاطبني السلطان بذلك وقال: ما عزلتك لأمر يوجب العزل ولا لقادح شرعي ولكن الواقع هذا»[57].

(54) انظر: المقريزي، كتاب السلوك، 1181/3/4-1183؛ العيني، عقد الجمان، 372/2 (مقتبس تحته).

(55) ابن تغري بردي، النجوم، 225/13؛ ابن سباط، صدق الأخبار (طرابلس، لبنان، 1993م)، 775/2-776.

(56) يبدو أن النص فيه سقط: لم يجدوا طريقًا في عزل مسطره إلى هذا الافتراء. [والصواب «إلا هذا الافتراء» كما هو مثبت في النص (المترجم)].

(57) العيني، عقد الجمان، ص/372.

وهكذا، لم يكن الرجلان يترددان في الإشارة إلى نقاط الضعف أو العلل الجسدية لدى كل منهما. فعندما سقط العيني عن حماره في ذلك العام نفسه وكسر ساقه، حرص ابن حجر على ذكر ذلك في تأريخه.(58) ثم رد العيني بالمثل، مشيرًا إلى التعب الذي شعر به ابن حجر عند زيارته للأمير محمد بن جقمق. فقد أجبرت مثل هذه الزيارات العالم المسن على صعود ليس فقط درجات القلعة بل وأيضًا درجات إضافية داخلها إلى شقق محمد المرتفعة[59]. ومع ذلك، يبدو أن العلاقات بين العالمين كانت جيدة في أوقات أخرى، لدرجة أنه عندما رافق الرجلان برسباي أثناء حملته إلى آمد في عام 836هـ/1433م، دعا العيني ابن حجر ليكون ضيفه في بيته في عينتاب في عيد الفطر[60].

ولم تكن الشكاوى الصغيرة المتفرقة مجرد مسألة خاصة بين هذين الرجلين. وكان المقريزي، الغريب عنهما، عرضة لمثل هذه المناوشات إلا استثناء واحدًا، حيث يبدو أن رأي المقريزي في ابن حجر كان عاليًا جدًّا؛ فهو لم ينطق بكلمة ضده في أي مكان، بل كان يشيد كثيرًا بعلم ابن حجر الراسخ كلما سنحت له الفرصة[61]. ومن المؤسف أن ابن حجر ربما لم يبادله هذا التقدير الرفيع بالكامل؛ بل إن السخاوي يذكر أن ابن حجر اعتبر المقريزي سارقًا، وأدانه لسرقة الجزء الأكبر من كتابه (الخطط) من جاره الأوحدي[62]. ولكن ليس من الواضح إلى أي مدى كان هذا الاتهام من رأي السخاوي وإلى أي مدى كان من رأي ابن حجر نفسه.

وعلى كل حال، ورغم أنه ظل محترمًا لابن حجر، فإن رأي المقريزي في العيني يبدو ضعيفًا. ويمكن أن نلمس ذلك في معاملة المقريزي للعيني في كتاب السلوك، وكذلك في عدم ذكره للعينتابي في الخطط. ولا يوجد في الخطط أي ذكر لمدرسة العيني، رغم أن موقعها بالقرب من الأزهر، وقبتها التي أضافها المؤيد، ومحرابها الاستثنائي المتأثر بالطراز الأناضولي، تقتضي ذكرًا على الأقل. في مقدمة الكتاب، يذكر المقريزي نيته في تصوير أمجاد العصور الماضية، وخاصة عهد الفاطميين. ومع ذلك، يشير أيمن فؤاد سيد إلى أن المقريزي خرج بشكل ملحوظ عن خطته الخاصة في أقسام لاحقة من كتابه، حيث يتضمن النص تواريخ تعود إلى 843هـ/ 1439-1440م. ويذكرنا سيد أيضًا أن الخطط أُلِّفَت تدريجيًّا طوال حياة المقريزي، ولم تُعَدَّ طبعة نهائية إلا في أواخر حياته بعد إتمام معظم أعماله الأخرى[63]. ويبدو من المستحيل أن يجهل المقريزي وجود مدرسة العيني.

(58) ابن حجر، إنباء الغمر في أنباء العمر، تحقيق عبد الوهاب البخاري (بيروت، 1986م)، 204/8.

(59) العيني، عقد الجمان، ص/617.

(60) المرجع نفسه، ص/431.

(61) انظر: المقريزي، كتاب السلوك، 992/2/4.

(62) Al-Sakhawi, "Al-I'lan", ed. And trans. Rosenthal, Historiography, 402.

(63) Ayman Fu'ad Sayyid, "Remarques sur la compositions des Hitat de Maqrizi d'après un manuscript autographe, hommages à la memoire de Serge Sauneron, 1927-1976, II: égypte post-pharaonique, 231-258, Bibliothèque dètude, 81:2 (Cairo, 1979), 240.

وبما أن تأليف كتابه الخطط امتد لعقود، فلا يبدو من المعقول أنه ترك هذه المباني لأنه كان قد أكمل التأليف بالفعل. ولا بد أن يثير هذا السؤال: ما المباني الأخرى التي أغفلها الكتاب؟ وهل أدّى رأي المقريزي الشخصي في مؤسسيها أي دور في اختياره للمواد؟ أو إذا كان حذفها نتيجة لانشغال المقريزي بالفاطميين، فلا بد أن نتساءل عن الدافع وراء هذا الانشغال. هل كان ذلك بسبب نسب المقريزي المزعوم إلى الفاطميين؟ وهل قَبِل هو نفسه هذا النسب؟ أم أن وضعه كدخيل منعزل في عصره كان له تأثير على انشغاله بعصر تاريخي متلاشٍ؟

لكن ليس هدفي أن أتناول هذه القضايا هنا، لأنها لا تتعلق مباشرة بالموضوع المطروح، وهو معالجة المقريزي للعيني. ولا شك أن القضية تبدو أكثر وضوحًا في كتاب السلوك. ففي هذا الكتاب، ورغم أن أغلب إشارات المقريزي للعيني كانت مجرد إشعارات حذرة بالترقيات أو العزل، فإن تلميحات إلى كراهية المقريزي للعيني تبرز عندما يتعلق الأمر بقضايا الحسبة. ففي إحدى الإشارات إلى العيني باعتباره محتسبًا، يقول المقريزي:

«في يوم الجمعة سابع ذى الحجّة اتّفقت حادثة شنيعة، وهى أن الخبز قلّ وجوده في الأسواق فعند ما خرج بدر الدين محمود العينتابى محتسب القاهرة من داره سائرًا إلى القلعة صاحت عليه العامة واستغاثوا بالأمراء وشكوا إليهم المحتسب، فعرّج عن الشارع وطلع إلى القلعة وهو خائف من رجم العامّة له وشكاهم إلى السلطان، وكان يختصّ به ويقرأ له في اللّيل تواريخ الملوك ويترجمها له بالتّركيّة، فحنق السلطان وبعث طائفة من الأمراء إلى باب زويلة، فأخذوا أفواه السّكك ليقبضوا على الناس، فرجم بعض العبيد بعض الأمراء بحجر أصابه فقبض عليه وضرب، ثم قبض على جماعة كبيرة من الناس وأحضروا بين يدى السلطان، فرسم بتوسيطهم، ثم أسلمهم إلى الوالي فضربهم وقطع آنافهم وآذانهم وسجنهم ليلة السبت، ثمّ عرضوا من الغد على السلطان فأفرج عنهم، وعدّتهم اثنان وعشرون رجلًا من المستورين ما بين شريف وتاجر، فتنكّرت القلوب من أجل ذلك، وانطلقت الألسنة بالدعاء وغيره»[64].

إن هذا المقطع لا ينتقد العيني بشكل مباشر، أو على الأقل ليس للوهلة الأولى. بل إن ابن حجر يبدو أكثر انتقادًا في وصفه للحادثة نفسها عندما يكتب:

«وفي سابع ذي الحجة 828هـ [10 أكتوبر] ثار جماعة على المحتسب وهو القاضي بدر الدين العيني بسبب إهمال أمر الباعة وشدة غلاء الخبز مع رخص القمح»[65].

(64) Ibn TaghriBirdi, History of Egypt, trans. Popper, 18/29;
وكذلك في النجوم، 14/117-18، والمقريزي، كتاب السلوك 4/2/698.
(65) ابن حجر، الإنباء، 8/77-78.

إن العيني ربما كان محتسبًا غير كفء، ولكن مهارته أو افتقاره إليها ليست هي النقطة هنا. بل إن آراء أقرانه هي التي تثير الاهتمام، وخاصة آراء المقريزي، وخاصة عندما نلاحظ أن ابن تغري بردي يقدم وجهة نظر مختلفة بشأن الحادثة في كتابه «النجوم الزاهرة». فبعد أن استشهد بمدخل المقريزي، أكد ابن تغري بردي أن المعلومات المقدمة صحيحة، ولكنه أضاف بعد ذلك أن المقريزي أهمل أن يذكر أن الغوغاء رجموا العيني بالفعل، وبالتالي برر شكواه إلى السلطان. ويواصل ابن تغري بردي شرحه قائلًا إن المقريزي أغفل هذه التفاصيل لأنه «يريد بذلك تقوية الشّناعة على العينتابيّ لبغض كان بينهما قديمًا وحديثًا»[66].

وفي مقطع آخر، كان انتقاد المقريزي أكثر إطالةً وأكثر وضوحًا في الوقت نفسه:

«وَفِي نصف هَذَا الشَّهْر: ارْتَفع سعر الْقَمْح وَتجَاوز الأردب ثَلَاثمِائَة دِرْهَم وَقل وجود الدَّقِيق فِي الطواحين وَوُجُود الْخبز بالأسواق وشنع الْأَمر فِي تَاسِع عشرينه وازدحم النَّاس بالأفران فِي طلب الْخبز وتكالبوا على ابتياع الْقَمْح فشحت نفوس الْخزَّان بِهِ وأبيع الْقدح الفول بأَرْبَعَة دَرَاهِم وَلِهَذَا أَسبَاب: أَحدهَا أَن الْبَدْر مَحْمُود العنتابي كَانَ أَيَّام حسبته يلين للباعة حَتَّى كَأَنَّهُ لَا حجر عَلَيْهِم فِيمَا يفعلوه وَلَا مَا يبيعوا بضائعهم بِهِ من الْأَثْمَان فَلَمَّا ولي الششماني[67] أرهب الباعة وردعهم بِالضَّرْبِ المبرح...[68]. وَاتفقَ فِي هَذِه الْأَيَّام هلك كثير من الجاموس وَالْبَقر بِحَيْثُ إن رجلًا كَانَ عِنْده مائَة وَخَمْسُونَ جاموسة فَهَلَكت بأجمعها وَلم يبْق مِنْهَا سوى أَربع جاموسات وَمَا نَدْرِي مَا يتَّفق لَهَا فَقلت الألبان والأجبان وَالسمن. ثمَّ هبت فِي نصف هَذَا الشَّهْر رِيَاح مريسية (؟)[69] وتوالت أَيَّامًا تزيد على عشرَة لم تستطع المراكب السّفر فِي النّيل فانكشف السَّاحِل من الْغلَّة وَجَاء الْخَبَر بغلاء الأسعار فِي بِلَاد غَزَّة والرملة ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماة حَتَّى تجَاوز سعر الأردب الْمصْرِيّ عِنْدهم ألف دِرْهَم فُلُوسًا إذا عمل حسابه. وَقدم الْخَبَر بغلاء بِلَاد الصَّعِيد وَأَنَّهَا بأسرها لَا يكَاد يُوجد بهَا قَمح وَلَا خبز بر وَمَعَ هَذِه الرزايا كلهَا شح الْأَعْيَان وطمعهم فَإِن بعض أُمَرَاء الألوف لما بلغ الْقَمْح مِائَتَيْنِ وَخمسين درهمًا الأردب قَالَ: لَا أبيع قمحي إِلَّا بثلاثمائة دِرْهَم الأردب. وَمنع السُّلْطَان أَن يُبَاع من حواصله قَمح لقلَّة مَا عِنْده

(66) ابن تغري بردي، النجوم، 118/14. وكذلك في:

History of Egypt, trans. Popper, 18/29.

(67) الأمير إينال الششماني عُيّن محتسبا في منتصف صفر 829هـ، في نهاية فترة التضخم (ذو القعدة 828- صفر 829هـ) ربما في محاولة لاستقرار الوضع؟

(68) يبدو أن النص غير واضح في الجملة المحذوفة: فكادوه (؟؟؟) وترك عدة منهم ما كان يعانيه (؟؟) من البيع.

(69) لم أستطع فهم هذه الكلمة: مُرْيِسِيَّة؟ مَرِيْسِيّة؟ مُرِيْسِيّة؟ [الرياح المريسية هي رياح تهب من الجنوب إلى مصر، وذلك لأن أعلى الصعيد إلى بلد النوبة يسمى مريس. ينظر: ابن الفقيه الهمداني، البلدان، تحقيق يوسف الهادي (بيروت، 1996م)، 128/1 (المترجم)].

فَظن النَّاس الظنون وجاعت أنفسهم وقوى الْحِرْص وتزايد الشُّح فَأمْسك خزان الْقَمْح مَا عِنْدهم مِنْهُ ضنًّا بِهِ وأملوا أَن يبيعوا الْبر بالدر. هَذَا ومتولي الْحِسْبَة بعيد عَن مَعْرفَتهَا فآل الْأَمر إِلَى مَا قيل: تجمعت الْبلوى عَليّ وتحد فَردا»[70].

ويبدو أن ارتفاع الأسعار بشكل كبير خلال تلك الأشهر القليلة أمر معترف به على نطاق واسع، إذ يذكر ابن حجر وابن تغري بردي والعيني نفسه ذلك أيضًا. ولكن الأسباب المحتملة تختلف من مؤرخ إلى آخر: فبالنسبة للمقريزي، كما رأينا آنفًا، كان السبب مزيجًا من عدم كفاءة العيني وعدد من الكوارث الطبيعية؛ أما بالنسبة لابن حجر، فكان السبب مزيجًا مماثلًا من إهمال العيني ووباء الحشرات في سوريا[71]. ويذكر العيني نفسه التضخم المالي ووباء الحشرات، ولكنه يتجاهل التوسع في الحديث عن أفعاله[72]، في حين لم يكن إسهام ابن تغري بردي اللاحق أكثر من نقل ونقد لرأي المقريزي[73].

ولم يتردد العيني في رد مثل هذا (الجميل) إلى أقرانه. ورغم أن العيني نجح في تحقيق مستوى عالٍ من النجاح المالي والمادي من خلال المنافسة على المناصب والوصول إلى الأشخاص الأقوياء والمناورة بفرص الرعاية بمهارة خلال حياته، فإن هذه لم تؤد تلقائيًّا إلى النجاح على المستوى المثالي من العلم. وفي مجال التاريخ يمكن اعتبار ابن حجر والمقريزي من بين منافسي العيني. بالإضافة إلى ذلك، كان العيني متورطًا في المناقشة الساخنة المذكورة أعلاه مع ابن حجر حول صحيح البخاري.

ولقد بلغت الأمور ذروتها في عام 833هـ/1428م، عندما وصل سفير إلى القاهرة من بلاط شاه رخ، ابن تيمور وحاكم هرات، طالبًا نسخًا من كتابين: كتاب السلوك للمقريزي، وكتاب فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر. وكان تكليف الملك بأعمال من مؤلفين بلغوا مستوى من الشهرة من الممارسات الخاصة برعاية الكتب في ذلك الوقت. ويسجل المقريزي عنواني الكتابين في كتاب السلوك، ويذكر كتاب ابن حجر الأول[74]. ويتجاهل ابن حجر ذكر كتاب المقريزي، رغم أنه يخبرنا أنه شرع على الفور في إعداد نسخة من عمله الخاص؛ ولا يذكر، كما يفعل ابن تغري بردي، أن برسباي رفض في الواقع طلب شاه رخ[75]. وإذا أخذنا تصوير السخاوي لرغبة المقريزي في الانفصال عن حياة البلاط على محمل الجد، فقد نستنتج هنا أن طلب شاه رخ لم يلق إعجاب المؤرخ. ولكن صورة ابن تغري بردي له باعتباره

(70) المقريزي، كتاب السلوك، 710/2/4-711.
(71) ابن حجر، الإنباء، 77/8-79، 94.
(72) العيني، عقد الجمان، 252/2-53.
(73) ابن تغري بردي، النجوم، 117/14-118.
(74) المقريزي، كتاب السلوك، 818/2/4.
(75) ابن حجر، الإنباء، 194/8؛ ابن تغري بردي، النجوم، 170/14.

رجلًا خاب أمله بسبب فشله في الساحة التنافسية قد تقودنا بدلًا من ذلك إلى استنتاج أنه نظر إلى هذا الطلب المحدد لعمله العلمي من قبل حاكم أجنبي -وابن تيمور في ذلك الوقت- باعتباره شرفًا.

يمكننا أن نستنتج أيضًا أن رغبة شاه رخ خان في الحصول على كتب اثنين من المنافسين الرئيسين للعيني كانت بمثابة ضربة مهنية للمؤرخ العينتابي. في مدخله الخاص للحدث، أعرض العيني بشكل غريب عن الإشارة بأي شكل من الأشكال إلى الكتابين المطلوبين، على الرغم من أنه دخل في بعض التفاصيل حول الهدايا الأجنبية المقدمة إلى السلطان برسباي:

«وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من المحرم (833هـ) جاء قاصد من عند شاه رخ بن تمرلنك سلطان بلاد العجم والترك ومعه كتاب فيه معانٍ كثيرة منه إلى الملك الأشرف ومعه هدية من هدايا بلادهم وكذلك كتاب ابن شاه رخ وهو إبراهيم شاه صاحب بلاد فارس التي كرسيتها مدينة شيراز وهو أيضًا أرسل هدية منها حجر بازهر[76] أحد عشر مثقالًا وكتاب منه مكتوب بالذهب بعبارات عربية ومعهم كتاب من القاضي شمس الدين محمد بن الجزري الشافعي قاضي القضاة بشيراز وتاريخ كتبهم من أول سنة (ثمانمائة) اثنين وثلاثين»[77].

وفي ترجمة العيني، ورغم تقديره الكبير له كمؤرخ، ينتقد السخاوي العالم العينتابى لأن كتبه لم تكن محل طلبات الملوك الأجانب:

«فشرح الْبَدْر أَيْضًا حافل لكنه لم ينتشر كانتشار شرح شَيخنَا وَلَا طلبه مُلُوك الْأَطْرَاف من صَاحب مصر»[78].

ولقد استمر ازدراء العيني للمقريزي حتى بعد وفاة الأخير في عام 845هـ/1442م. وكان المقريزي أول من رحل عن الدنيا، وعمره تسعة وسبعين عامًا، وتوفي في السادس عشر من رمضان/28 يناير/ كانون الثاني بعد مرض طويل[79]. ولم يكن المقريزي، بسبب عزلته الطبيعية، وبسبب ظروفه المهنية

(76) حجر بازهر من الكلمة الفارسية پادزهر (پاد معناه ضد، وزهر معناه سم)؛ يشير إلى تركيزات تشبه الحجر من المواد العضوية الراتينجية التي يُعتقد أنها تتمتع بخصائص طبية.

(77) العيني، عقد الجمان، 370/2-371.

(78) السخاوي، الضوء، 134/10. ولكن ربما كان العيني قد انتقم من شاه رخ بالطريقة الوحيدة الممكنة، أي باستخدام علمه الخاص ضد التيموريين. وخلال عهد برسباي كانت هناك قضية استراتيجية وأيديولوجية وفقهية مثيرة للجدل، وهي محاولة شاه رخ توفير الكسوة أو غطاء الكعبة، التي كان المماليك يحافظون عليها تقليديًا. وكان رفض برسباي المتكرر لطلبات شاه رخ بتوفير الكسوة غير مرغوب فيه بشكل عام بين الأمراء. لذلك، في عام 1434/838، عندما كتب شاه رخ مرة أخرى يطالب بهذا الامتياز، موضحًا أنه ملزم بقسم أقسمه بعد حلم، التقى برسباي مع رؤساء القضاة الأربعة لمناقشة النتائج الفقهية لرفض طلب مثل هذا الفرد. وليس من المستغرب أن نكتشف أن العيني، الذي رفض علميًا قبل ست سنوات، هو الذي صرح بأن نذر شاه رخ باطل ولاغٍ، وبالتالي أعطى برسباي الأساس القانوني لرفض الطلب؛ انظر المقريزي، كتاب السلوك، 928/2/4.

(79) السخاوي، الضوء، 25/2.

التي جعلته بعيدًا عن دوائر السلطة والثروة، ينعم حتى براحة أبنائه في أيامه الأخيرة، فقد سبقته في الوفاة ابنته فاطمة في عام 826هـ/1423م[80]. فمن حيث الساحة التنافسية وممارسات الرعاية المملوكية، يبدو أن المقريزي قد مات فاشلًا؛ أما من حيث المساعي العلمية، فقد حقق نجاحًا باهرًا وإن كان مقيدًا على الأقل مع أتباعه وإن لم يكن مع منتقديه[81]. ولا يمكن للموت أن يخفف من عداء العيني للمقريزي؛ يشير ابن تغري بردي إلى أن العيني سجل بشكل غير صحيح تاريخ وفاة المقريزي على أنه 29 شعبان/12 يناير[82]. وإن ذكر العيني لوفاة المقريزي لا يتجاوز خمسة أسطر، ولا يذكر فيه أي شيء عن أعمال المقريزي، ولا عن إنجازات حياته المهنية السابقة، بل يتهمه بالكهانة، ثم يحاول (توضيح) حادثة الحسبة التي وقعت في 801-803هـ/1398-1401م:

«[توفي في هذه السنة] الشيخ تقي الدين أحمد بن المقريزي توفي يوم الجمعة التاسعة والعشرين من شعبان. وكان مشتغلًا بكتابة التواريخ وبضرب الرمل. تولى الحسبة بالقاهرة في آخر أيام الملك الظاهر ثم عزل بمسطره ثم تولى مرة أخرى في أيام الأمير سودون ابن أخت الظاهر الدوادار الكبير عوضًا عن مسطره بحكم أن مسطره قد عزل نفسه بسبب ظلم سودون المذكور»[83].

أما نعي ابن حجر للمقريزي، فقد جاء في خمسة وعشرين سطرًا، وكان تاريخه 17 رمضان/29 يناير/كانون الثاني. وفي النعي أشار إلى حب المقريزي للتاريخ، ثم مضى في مدحه:

«وكان إمامًا بارعًا مفننًا متقنًا ضابطًا دينًا خيرًا، محبًّا لأهل السنة يميل إلى الحديث... حسن الصحبة، حلو المحاضرة، وحج كثيرًا وجاور مرات».

يكمل ابن حجر بقية الملاحظة في التحدث عن علاقة المقريزي المزعومة بالفاطميين[84]. ويضعف هذا البيان من رواية السخاوي لكراهية ابن حجر للمقريزي بسبب السرقة المزعومة للخطط. وقد دفن المقريزي في مقابر الصوفية[85].

وبعد بضع سنوات، في ذي القعدة سنة 852 هـ/يناير 1449م، مرض ابن حجر. دفع هذا الأمر أفواجًا من الزوار إلى عيادته، وهو ما كان متوقعًا نظرًا لمكانته الفكرية وسمعته قبل أن يتوفى في نهاية

(80) المقريزي، كتاب السلوك، 651/2/4.

(81) ومن بينهم السخاوي الذي اتهم المقريزي بسرقة مخطوطة كتابه الخطط، وربما ابن حجر أيضًا. انظر: السخاوي، الضوء، 59-358/1، 22/2؛ وكذلك: Al-I'lan, ed. And trans. Rosenthal, Historiography, 285, 402."

(82) ابن تغري بردي، النجوم، 226/15.

(83) العيني، عقد الجمان، 574/2.

(84) ابن حجر، الإنباء، 172/9.

(85) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 420/1؛ السخاوي، الضوء، 25/2.

الشهر. وقد حضر جنازته عدد كبير للغاية من الناس؛ فقد حضر السلطان جقمق، وكذلك الخليفة العباسي، الذي أمَّ الصلاة عليه. (يذكر ابن تغري بردي أن عدد المشيعين بلغ 50 ألفاً)[86]. ودُفن ابن حجر بالقرب من قبر الإمام الشافعي، وقد أقيمت الصلاة عليه في دمشق والقدس ومكة والخليل وحلب، وهو ما يليق بشخصية شهيرة ومحترمة مثله[87].

وبعد ابن حجر بعام جاء دور العيني آخر الثلاثة، وقد أصيب بضعف الذاكرة في أواخر حياته، ولعل هذا كان من أسباب عزله من منصب ناظر الأحباس سنة 853هـ/1449م على يد جقمق «لكبر سنه»[88]. ولعل السبب الآخر هو دسائس عالم أصغر سنًّا، وهو علاء الدين بن أقبرس. ولكن تراجع حياة العيني المهنية كان قد بدأ قبل ذلك. فالعالم الذي نجح في إقامة صداقات مع ثلاثة سلاطين على التوالي لم يبْدُ أنه نجح بالمستوى نفسه بعد الانتقال إلى عهد العزيز جقمق الجديد. ويخبرنا ابن تغري بردي أنه بعد وفاة برسباي عام 841هـ/1438م، أُستُبدِل العيني كقاضي القضاة الحنفية وظل في منزله. ويضيف السخاوي أنه ركز على الكتابة في هذه الفترة، واعتمد ماليًّا على دخله باعتباره ناظرًا للأحباس حتى فقد هذا المنصب، فباع بعد ذلك ممتلكاته وكتبه، باستثناء تلك الأشياء التي أودعها في مدرسته، وهو ما يدل على الطبيعة غير المؤكدة حتى لنجاحه المادي الكبير[89]. ومثل المقريزي، عاش العيني أكثر من كل أبنائه. ففي عام 855هـ/1451م توفي العيني عن عمر يناهز الثالثة والتسعين، ودُفن في مدرسته.

الخاتمة

وفي الختام نرى أن حياة ابن حجر والعيني والمقريزي، فضلًا عن التنافسات العديدة بين الرجال، توفر دراسة حالة لبعض أنواع التفاعل ما بين العلماء وبين العلماء وأعضاء النخبة العسكرية. كانت حياة العديد من العلماء خلال فترة المماليك مرتبطة بحياة السلطان والأمراء في نوع من الاعتماد المتبادل، والذي تمثل في الرعاية المالية والمادية النخبوية للعلماء في مقابل الشرعية والمشاركة في البيئة الثقافية الإسلامية المهيمنة. وكما أشار تشامبرلين، فإن الطريق إلى النجاح المادي والمالي بالنسبة للعلماء قد يكمن في نطاق المنافسة الاجتماعية والعلمية، والتي تحددها معايير ممارسات الرعاية المملوكية.

(86) ابن تغري بردي، النجوم، 259/15.

(87) محمد كمال الدين عز الدين، ابن حجر العسقلاني مؤرخا (بيروت، 1407هـ/1987م)، ص/106-110.

(88) Ibn Tahgribirdi, History of Egypt, trans. Popper, 19/118.

(89) السخاوي، الضوء، 133/10.

وبالتالي، نشأت العداوة والتحزب والتنافس بشكل حتمي حيث كان العلماء يتنافسون من أجل القرب من الرعاة والمكافآت المادية والمالية المواتية داخل الساحة التنافسية. في حالة العيني والمقريزي، نشأ التنافس بينهما بعد واقعة المحتسب في عام 801-803هـ/1399-1401م. وبالنسبة للعيني وابن حجر، كانت تنافساتهما متعددة الأوجه ومستمرة. وهكذا، توفر حياة العلماء الثلاثة أيضًا دراسة حالة ليس فقط لأنواع ومظاهر المنافسات الشائعة بين العلماء في ذلك الوقت، ولكن أيضًا لتعريفات النجاح المتعددة والمتضاربة في كثير من الأحيان.

قائمة المراجع:

1. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق عبد العزيز الطنطاوي القرموط، القاهرة، 1985م.
2. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة، 1967م.
3. القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، بيروت، 1407هـ/1987م.
4. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن، 1995م.
5. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، 1973م.
6. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، **إنباء الغمر في أنباء العمر**، تحقيق عبد الوهاب البخاري، بيروت، 1986م.
7. ابن سباط، محمد بن حسن، **صدق الأخبار**، طرابلس، لبنان، 1993م.
8. ابن تغري بردي، يوسف، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، 1984م.
9. ابن تغري بردي، يوسف، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، بيروت، 1992م.
10. ابن الفقيه الهمداني، **البلدان**، تحقيق يوسف الهادي، بيروت، 1996م.
11. عز الدين، محمد كمال الدين، **التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني**، بيروت، 1404هـ/1984م.

12. عز الدين، محمد كمال الدين، **ابن حجر العسقلاني مؤرخًا**، بيروت، 1407هـ/1987م.
13. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، القاهرة، بدون تاريخ.
14. محمد مصطفى زيادة، **تاريخ حياة المقريزي**، في «دراسات عن المقريزي»، القاهرة، 1971م.
15. أحمد الجليلي، «ترجمة ابن خلدون للمقريزي"، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، مج13، 1965م: 215-242.

Arabic References

1. Al-ʻAynī, Badīr al-Dīn Mahmūd ibn Aḥmad. *Ed: al-Jamān fī Tārīkh Ahl al-Zamān*, ed. ʿAbd al-ʻAzīz al-Ṭanṭāwī al-Qurmūṭ, Cairo, 1985.
2. Al-ʻAynī, Badīr al-Dīn Mahmūd ibn Aḥmad. *Al-Sayf al-Muhannad fī Sīrah al-Malik al-Muʻayyad*, ed. Fahīm Muḥammad Shiltūt, Cairo, 1967.
3. Al-Qalqashandī, Aḥmad ibn ʿAlī. *Ṣubḥ al-Aʿshā fī Ṣanʿat al-Inshāʻ*, Beirut, 1407 AH/1987.
4. Al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn Aḥmad ibn ʿAlī. *Al-Mawāʿiẓ wa-al-Iʻtibār fī Dhikr al-Khiṭaṭ wa-al-Āthār*, ed. Ayman Fu'ād Sayyid, London, 1995.
5. Al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn Aḥmad ibn ʿAlī. *Kitāb al-Sulūk li-Maʻrifat Dawāl al-Mulūk*, ed. Saʻīd ʻĀshūr, Cairo, 1973.
6. Ibn Ḥajar al-ʻAsqalānī, Aḥmad ibn ʻAlī. *Anbāʼ al-Ghamr fī Anbāʼ al-ʻUmr*, ed. ʻAbd al-Wahhāb al-Bukhārī, Beirut, 1986.
7. Ibn Sabāṭ, Muḥammad ibn Ḥasan. *Ṣidq al-Akhbār*, Tripoli, Lebanon, 1993.
8. Ibn Taghrī Birdī, Yūsuf. *Al-Manhal al-Ṣāfī fī al-Mustawfā baʻd al-Wāfī*, ed. Muḥammad Muḥammad Amīn, Cairo, 1984.
9. Ibn Taghrī Birdī, Yūsuf. *Al-Nujūm al-Zāhirah fī Mulūk Miṣr wa-al-Qāhirah*, Beirut, 1992.
10. Ibn al-Faqīh al-Hamdānī, *Al-Buldan*, ed. Yūsuf al-Hādī, Beirut, 1996.

11. ʻAzīz al-Dīn, Muḥammad Kāmil al-Dīn. *Al-Tārīkh wa-al-Manhaj al-Tārīkhī li-Ibn Ḥajar al-ʻAsqalānī*, Beirut, 1404 AH/1984.
12. ʻAzīz al-Dīn, Muḥammad Kāmil al-Dīn. *Ibn Ḥajar al-ʻAsqalānī as a Historian*, Beirut, 1407 AH/1987.
13. Al-Sakhāwī, Shams al-Dīn Muḥammad ibn ʻAbd al-Raḥmān. *Al-Ḍawʻ al-Lāmiʻ li-Ahl al-Qarn al-Tāsiʻ*, Cairo, no date.
14. Muḥammad Muṣṭafā Ziyādah. *Tārīkh Ḥayāt al-Maqrīzī*, in "Dirāsāt ʻan al-Maqrīzī", Cairo, 1971.
15. Aḥmad al-Jalīlī, "Tarjamah Ibn Khaldūn li-al-Maqrīzī", *Majallat al-Majmaʻ al-ʻIlmī al-ʻIrāqī*, 13 (1965): 215-242.

المراجع الأجنبية:

1. Chamberlain, Michael, *Knowledge and Social Practice*, Cambridge, 1994.
2. Gaston Wiet, "L'historien Abul-Mahasin," *Bulletin de l'Institut d'Egypte* 10 (1930): 102-3.
3. Ibn Taghribirdi, *History of Egypt 1382-1467*, trans. William Popper, University of California Publications in Semitic Philology, Berkeley, 1958.
4. Layla Ali Ibrahim and Bernard O'Kane, "The Madrasa of Badr ad-Din Al-Ayni and Its Tiled Mihrab," *Annales Islamogiques*, 24 (1998): 267.
5. Li Guo, "Mamluk Historiographic Studies: The State of the Art," *Mamluk Studies Review*, 1 (1997): 24-25, esp. note 46.
6. M. Talbi, "Ibn Khaldun," *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd Ed., 3:827.
7. W. Marçais, "al-Ayni," *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd Ed., 2/790-91.
8. Al-Sakhawi, *Al-I'lan bi-Al-tawdih Li-Man Damma Ahl Al-Tarikh*, ed. and trans. Franz Rosenthal, in *A History of Muslim Historiography*, Leiden, 1952.